فنون العراق القديم
الرسوم الجدارية في العصر البابلي القديم
جدارية قصر الملك زمري _لم

تعد هذه الجدارية من أبرز الأعمال الفنية التي تركها لنا الفنان البابلي القديم على جدران الساحة الداخلية (١٠٦) من البيئة الوسيطة(*١) في قصر ماري والتي اتخذت موقعا على اليمين من مدخل القاعة (٦٤) (قاعة العرش الكبرى) التي يتم فيها الطقوس الدينية لتتويج الملك (اللوح ١) . وتناولت موضوعا مهما يجمع بين المضامين الدينية والدنيوية في آن واحد ، ويعبر عن مفهوم الملوكية الرافدينية القديمة وعلاقتها بالمفاهيم الدينية المتضمنة استلام شارات السلطة من قبل الآلهة.
يعود تاريخ تنفيذ الجدارية الى عام (١٧٦٠ ق.م من القرن ١٨ ق.م) من زمن الملك زمري لم الذي يدور حوله الموضوع الرئيسي للجدارية ، أثناء تتويجه ملكا على مدينة ماري (١ : ص ٣٣٤. (عملت الجدارية كواجهة اعلامية لزوار القصر أثناء دخولهم الى قاعة العرش وتهيئة الجانب الفكري والعقائدي لما يحدث فيها من طقوس دينية وطرد للأرواح الشريرة عن الملك أثناء تتويجه وأستلامه لشارات السلطة والملكية عبر أحتفالات الزواج المقدس المتعارف عليها عند الرافدينيين

القدماء.
تتصف الجدارية بأنها ذات خصائص اسلوبية مميزة من الفن الجداري البابلي وتتضح من خلال التأليف الفني العالي المستوى من العناصر والمفردات البيئوية الموزعة توزيعا متناظرا حول الموضوع المركزي من الجدارية ، وتشكل (الشجرة المحورة)(موضوعة البحث الرئيسية التي يروم الباحث الكشف عن أصلها الطبيعي) من المفردات البارزة التي ظهرت في التكوين الفني للجدارية ، واتخذت موقعين متميزين على جانبي الموضوع المركزي ، حيث تمثل بقية المفردات الطبيعية والمحورة (التي وضعت بجوار الشجرة) عوامل مساندة للهدف المذكور.
يتألف التكوين الفني للجدارية من عدة أجزاء ، ويتكون الموضوع الرئيسي من عدة أقسام وعلى النحو الآتي:
_1القسم المركزي : وهو بهيئة مربع ، يمثل غرفة الطقس التي يتم فيها مراسيم التتويج ، محاط باطار خارجي مكون من ستة أشرطة ملونة ومقسم الى نصفين.

أ_ النصف الأعلى:
يمثل مشهد تتويج الملك مرتديا ردائه الخاص بهذه المناسبة يستلم (الحلقة والصولجان_ شارات السلطة) من الألهة عشتار، وهي متنكبة اسلحتها القتالية (القوس والنبال اضافة الى السيف المقوس _ الألة الطقوسية) معتمرة تاجها الالهي المقرن ، تتقدم لتمنح الملك (الحلقة والصولجان) ، ويبدو تحت قدمها الأيمن (الأسد _ التابع الحيواني الحامي لها) . كما يبدو خلفها وخلف الملك آلهة ثانوية مرافقة يليها اله ملتحي آخر.
ب_ النصف الأسفل:
ويظهر في الجزء الأسفل من القسم المركزي ، يفصله عن النصف الأعلى ستة شرائط متصلة بالشرائط التي تحيط بالقسم كله . بداخله آلهتين متقابلتين من النوع (ألهات النهر) يظهر بيد كل واحد منهما اناء يتدفق منه الماء بهيئة جدولين تتخذ أربعة جداول بوسطها (نبتة_سنبلة) ، ومن الملاحظ في هذه الجداول ظهور أسماك سابحة بعكس اتجاه مجرى الجداول متجهة نحو (الاناء_المنبع)(*٢. (

_2الأجزاء المحيطة بالقسم المركزي:

من المفردات التي تثير المشاهد ، ظهور شجرتين متناظرتين على يمين ويسار القسم المركزي (اعتقد البابليون على انها أشجار مقدسة_ رمزية)(وهي موضوعة البحث) . بالاضافة الى ظهور كائنات مركبة وبشكل متناظر على جانبي القسم المركزي موزعة على ثلاثة أشرطة تمثل كائنات مجنحة (أسطورية) مع كائن مركب آخر(غير واضح الرأس) يرفع احدى أطرافه الأمامية على (زخرفة الجبل)(*٣) . كما يلاحظ وجود نخلتين متناظرتين على جانبي القسم المركزي يتسلق عليهما شخصان يلتقطان التمر ، يلي النخلتين آلهتين ثانويتين تقتربان في هيئتهما من الآلهات المرافقة (المذكورة سابقا) . ومما يثير الانتباه أيضا ظهور طائر كبير (يفرد جناحيه للطيران) يحاول الانطلاق من النخلة اليمنى من الجداريه.

وتظهر أيضا حاشية من الزخارف (الحلزونية والمقوسة ودوائر صغيرة)مربوطة بخطوط مستقيمة تتخذ في هيئتها اطار عام مستطيل يحيط بجميع جوانب الجدارية.

والآن .. وبعد هذا الوصف ، لابد من وقفة تأملية شاملة للمفردات التي استلهمت من البيئة الطبيعية الرافدينية بأشكالها المتنوعة والتي ظهرت على النحو الآتي:

_1أشكال آدمية : الملك _ شخصان متسلقان

_2أشكال الهية :الالهة عشتار _ الهة ثانوية مرافقة

_3أشكال طبيعية : الماء _ زخرفة الجبل المحورة

_4أشكال نباتية : سنبلتين _ نخلتين _ شجرتين رمزيتين(موضوعة البحث(

_5أشكال حيوانية : أسد _ أسماك _ طائر

_6أشكال أسطورية : كائنات مركبة

وحسبنا أن نؤكد على أستلهامات (للأشكال النباتية) من البيئة ، والتي تتمثل في كون النخله تمثل عنوانا لأرض الرافدين ورمزا سومريا وأكديا وبابليا وأشوريا قديما وهي الشجره المقدسة و(شجره الحياة) لديهم ، وتعد رمزا لعطاء الأرض والثروه الزراعية أضافه (للسنبلة) التي تمثل

بعض هذه الاعتبارات . وبالتالي فكل ذلك من مؤثرات البيئة الطبيعية (النباتية) على مفهوم الرمزية في فكر الفنان والعراقيين القدماء.
أما الشجره (المحورة) موضوعه البحث ، والتي لم يتطرق إلى أصلها الطبيعي أحد من الباحثين والمختصين الذين تناولوا موضوع الجداريه ، مكتفين في وصفها بأنها (شجره محوره أو شجره الحياة)(*٤) أو (مؤسلبه)(*٥) ، قام برسمها الفنان البابلي على جانبي الجزء المركزي من الجداريه أضافه لشجره النخيل الواضحة المعالم.